مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

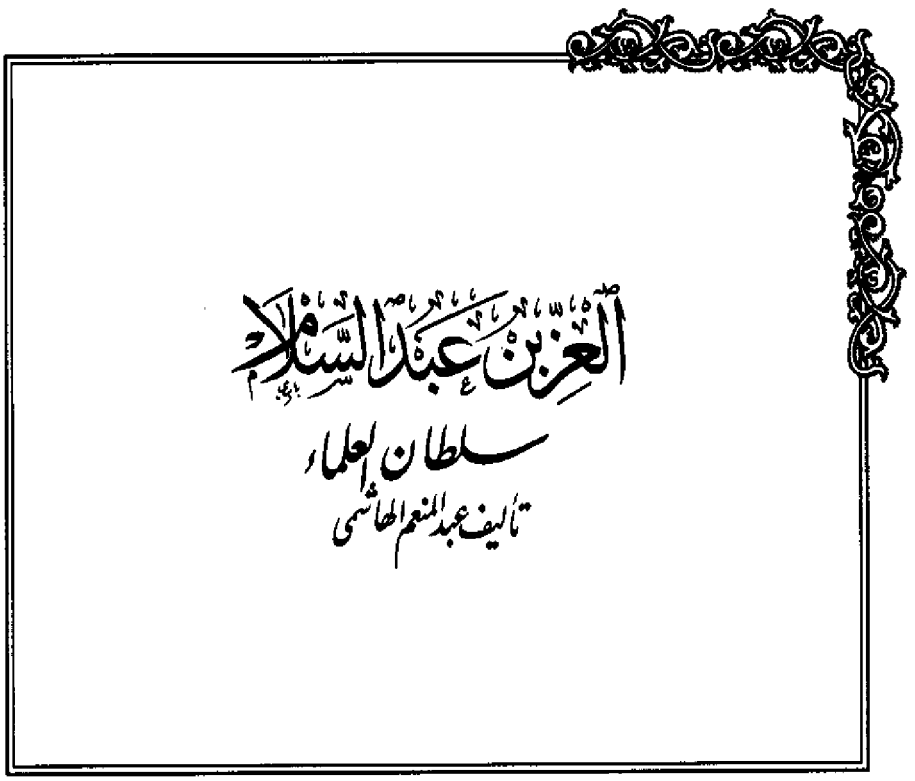

د. محمد بن الحاج

هذا أثر جديد يطل على دنيا الناس، يقدم إليهم علماً فذاً من أعلام هذه الأمة في سلسلة بعنوان (سلسلة أعلام العلماء(1)) عن دار ابن كثير بدمشق ـ بيروت (ط1/ 1414 هـ/ 1993م) في طبعة أنيقة عدد صفحاتها (110) صفحات من القطع الصغير. هذا العالم الفذ هو سلطان العلماء عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (ت 660 هـ) الذي تناولت كتب التراجم أخباره بكل الاعتزاز، وأثارت شخصيته كثيراً من الأقلام الصادقة في هذا العصر، فألفت عنه معرّفة به أجيالنا الحاضرة والمستقبلة، علّها تقبس من مآثره الرائعة وتقتدي بمواقفه الخالدة، وتربي أبناءها على ورعه وقوته في الحق، وإخلاصه لله تعالى.

إن هذا الاتجاه الطيب الذي انتهجه أمثال مؤلف هذا الكتيب واحتضنته (دار ابن كثير) هو مسعًى مبارك لتقديم السلف الصالح للنشء الجديد، وكم

نتمنى أن ينشط علماؤنا وأدباؤنا فيخرجوا لنا مئات التراجم التي يزخر بها تراثنا المجيد، مصوغة في أسلوب عصري سهل جذّاب.

ولما كان الهدف من مثل هذه التراجم المفيدة مخاطبة قطاعات الناشئين والشباب قبل غيرهم، فقد صار لزاماً أن يكون أسلوبها ملائماً ومشوقاً لا ترهقه الصرامة العلمية والحجاج المنطقي الجاف من جهة، ولا ينحط به الإسفاف، أو يميّعه الخيال المجنّح الذي يحرف حقائق الأحداث أو يختلقها أو يبالغ في تصويرها من جهة أخرى. لذلك فإن كتابة مثل تلك التراجم تحتاج إلى قدرة خاصة، تسوق الحقائق في ثوب مشوق جذّاب مقنع، وتحيل النقول المختلفة إلى مصادرها ومراجعها بدقة، حتى يكون ذلك برهاناً للكتاب بين يدي ما يقدمه للقراء، ودليلاً مرشداً لأي باحث أو دارس يريد العودة إلى تلك النصوص في مظانها ليتأكّد منها أو يتوسع في الاستفادة منها.

بهذا الفهم المحدّد لما ينبغي أن يكون عليه التأليف في هذا المجال أقدمتُ بلهفة أقرأ كتيب الأخ الكريم عبد المنعم الهاشمي شاكراً له حسن اختياره لهذه الشخصية، وحسن نواياه لإفادة القراء اليوم وغداً. لكن للأسف ما إن توغلت في الكتاب حتى أخذت أصطدم بمآخذ كثيرة ما كان للمؤلف أن يقع فيها، حتى إنني قلت: لو أن هذا الأثر روجع من قبل خبير مجرب، لاستطاع تجنب كثير مما ورد فيه من المآخذ العلمية والمنهجية.

فأولاً: يلاحظ أن معظم المادة العلمية نقلت ملخصة عن كتاب حديث لأديب لامع هو المرحوم (عبد الرحمن الشرقاوي) وهو (أئمة الفقه التسعة)[1] الذي استعرض فيه حيوات أولئكم الخالدين بأسلوب صحفي جذاب، أهمل فيه ذكر المصادر والمراجع إهمالاً يكاد يكون كلياً. وإذا أراد القارىء تتبع هذا التلخيص الذكيّ، لم يجد صعوبة في معظم صفحات هذا الكتيب لصاحبنا الهاشمي. أما بقية المادة التي جاءت أحياناً في شكل نصوص مباشرة، فمعظمها من (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي، ثم نقلان مطوّلان من (الموسوعة العربية

(1) نشرته دار اقرأ في بيروت (1401 هـ/ 1981م) وهو في الأصل سلسلة مقالات كان يكتبها الشرقاوي في جريدة الأهرام خلال شهر رمضان على عدة سنوات.

الميسرة!!!) ثم نقلان آخران عن (حسن المحاضرة) للسيوطي، ونقل عن رحلة (ابن جبير) وبضعة نقول متفاوتة عن كتابين للعزّ بن عبد السلام هما (الإشارة إلى الإيجاز..) و(الإمام في بيان الأحكام)، علماً بأن معظم الصفحات التي أحال إليها الكاتب جاءت أرقامها غير صحيحة!!!.

ثانيا: ختم المؤلف كتيّبه بالحديث عن (آراء في الزهد والتصوف)، نسبها إلى سلطان العلماء، ونقلها بحذافيرها عن عبد الرحمن الشرقاوي، من كتابه المذكور (أئمة الفقه التسعة). ولما كانت هذه المعلومات عند الشرقاوي نفسه مجرد أوهام وقع فيها دون أن يدري، لذا فقد كان من حظ صاحبنا الهاشمي هنا أن يقع فيها بسبب اعتماده على هذا المرجع (الشرقاوي). وهذه طامة الاعتماد على المراجع دون التحقق من المصادر الأولى.

أما توضيح ما وقع فيه الشرقاوي في هذا الشأن فملخصه الآتي:

كان من بين الكتب التي نسبها بعض المتأخرين أمثال البغدادي في كتابه (هدية العارفين 1/ 580)[2] إلى العزّ بن عبد السلام على سبيل الخطأ كتاب (حل الرموز ومفاتيح الكنوز)[3] لابن غانم المقدسي (ت 678 هـ)، وبسبب تشابه

---

(2) نقل عنه بروكلمان (ملحق 1/ ص768 بالألمانية).

(3) طبع هذا الكتاب بمطبعة جريدة الإسلام في مصر 1317هـ، وبالمطبعة اليوسفية في طنطا وفي عام 1995م صدر عن مكتبة العلم والإيمان ومكتبة تاج في طنطا الكتاب نفسه (بتحقيق) وتقديم طه عبد الرؤوف سعد، وهي طبعة فاسدة بسبب نسبة الكتاب للعز بن عبد السلام وهو لا صلة له به.. وانظر (مجاز القرآن) للعزّ بن عبد السلام تحقيق د. محمد مصطفى بن الحاج ـ=

اسمي كل من سلطان العلماء، وابن غانم المذكور، وهو (أبو محمد عز الدين بن عبد السلام..) قام الأستاذ محمد عبد الله السمان فنشر أجزاء من كتاب (حل الرموز..) المشار إليه، ووضع له عنواناً إضافياً هو (بين الشريعة والحقيقة) وصدر عن سلسلة الثقافة الإسلامية رقم (25) في رجب/ يناير 1961م، واستناداً إلى هذا الخطأ الجسيم وقع كثير من الدارسين والباحثين في تحميل العزّ بن عبد السلام ما لم يقل، فكان أن نقل ذلك الخطأ الشرقاوي، ثم نقل صاحبنا (عبد المنعم الهاشمي) مباشرة عن الشرقاوي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! وإذن فالصفحات (101 ـ 108) باطل يجب أن يحذف.

وبناء على هذه الحقائق صار لزاماً أن يصحح كل باحث وكل دارس وقع في تلك الأخطاء ما كتب وما نشر إحقاقاً للحق وإنصافاً للسلف.

ثالثاً: إحالة القارىء إلى مواضع لا وجود لها. وقد وقع الكاتب في هذا في صفحات: (6) حيث أحال إلى (مقدمة كتاب الإشارة إلى الإيجاز (ص د)، هذه المقدمة لا تحتوي على النص، وإنما النص موجود في ترجمة العزّ في طبقات الشافعية.

وفي (ص10) يحيل المؤلف إلى (البداية والنهاية 13/ 248)، وبالمراجعة تبين أن لا وجود للنص هناك. وفي (ص14) يحيل إلى وجود نص في طبقات الشافعية، ولا وجود له فيها كذلك. وفي (ص35) ينقل كلاماً مطولاً عن الشرقاوي (ص300 ـ 301) لكنه يحيل القارىء على طبقات السبكي حيث لا يوجد فيها.

كذلك يحيل في صفحات (92 و94 و96 و97 و102) إحالات لا وجود لها فيما يشير إليه من مراجع!!.

رابعا: العبث بالنصوص والإساءة إليها، وقد جاء ذلك بعدة صور:

1 ـ الصورة الأولى تمزيق النص وتقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر. وأوضح مثال له مضحك ما جاء في (ص38) حيث أورد ثلاثة نقولات متداخلة، فبدأ النص بالنقل من (ص219/ 8) من طبقات الشافعية، ثم قفز فاقتطع من

= السلسلة التراثية (11) منشورات كلية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس (1992) ص34.

(ص233)، ثم عاد فنقل من (ص225)، ثم جمع هذه الأشتات وكوّن منها نصاً ووضعه بين قوسين موهماً القارىء المسكين بالدقة والأمانة!!.

2 ـ الصورة الثانية نقل الكلام محرفاً، ومثاله بيت الأعشى الذي أثبته في (ص92) هكذا:

فبدت وقد أسارت في الفؤاد مبدعاً على نابها مستطيرا

والبيت كما هو في (الإشارة إلى الإيجاز[4]...) ص279:

فبات وقد أسأرت في الفؤا د صدعاً على نابها مستطيرا

3 ـ الصورة الثالثة دمج النصوص المنقولة عن الآخرين بكلام المؤلف، ولهذا أمثلة كثيرة جداً منها النص المنقول (ص7) عن اليافعي، حيث إن الأسطر الثلاثة الأولى هي من كلامه وليست لليافعي، والنص المنقول من طبقات الشافعية في كتيبه (ص41 ـ 42)، والنص المنقول (ص66) عن حسن المحاضرة... إلخ.

4 ـ الصورة الرابع تحريف النص المنقول، وأمثلته ما جاء في (ص16) عندما ذكر نقلاً عن السبكي أن ابن عساكر شيخ العزّ قد حدّث في مكة والقدس إضافة إلى دمشق، فأضاف الأخ الكاتب (وحدث في الحرم الشريف) أي المدينة المنورة، وهو ما لم يقله السبكي. وهناك تحريفان آخران في (16) وص (22) بسبب النقل غير الدقيق عن عبد الرحمن الشرقاوي. وكذلك في (ص44 وفيها أيضاً سقط من الآية المذكورة هناك) وفي (ص58) حيث نقل عن ابن جبير (جبانة العرافة) بدلاً من (.. جبانة القرافة) المعروفة في القاهرة... إلخ.

خامساً: ذكر المؤلف في (ص97) أن من بين كتب العزّ بن عبد السلام كتاب (مختصر مجاز القرآن) وهذا وهم منه، إذ لم يرد في كل المصادر شيء من هذا. كذلك إشارته إلى وجود وصية العز ضمن كتاب (الإشارة إلى الإيجاز..) هي باطلة، لأنها لا توجد فيه.

---

(4) هذا هو العنوان الثانوي لكتاب (مجاز القرآن) للعزّ، وكتاب (الإشارة) نشرته المكتبة العلمية بالمدينة المنورة (مطابع دار الفكر بدمشق) نقلاً عن النسخة (غير المحققة) التي طبعت في الآستانة عام 1313 هـ.

سادساً: اعتماده على مصادر حديثة معاصرة لا يقبلها البحث العلمي الملتزم لتكون بديلاً عن كتب الأمهات من المصادر الأولية للمادة العلمية. ومن هنا فإن كتاباً مثل (الموسوعة العربية الميسرة) مثلاً، لا يجوز اعتماده مرجعاً بَلْهَ مصدراً للحقائق، وإنما هو كتاب للمطالعة العامة وتثقيف العوام. وكذلك الأمر بشأن كتاب (أئمة الفقه التسعة) الذي اتكأ عليه المؤلف كل الاتكاء!! فهو ذاته كتاب ـ مع قيمته الأدبية ـ لا يعترف به البحث العلمي الملتزم.

إن الركون لمثل هذه المؤلفات هو سبيل الانزلاق في مهاوي الأخطاء والوهم والأحكام الضالة دون شعور

ولقد كان من واجب المؤلف وضع فهرس بمجموعة الكتب التي استند إليها في تأليفه، ذاكراً عناوينها ومؤلفيها وأرقام طبعاتها ومكان نشرها وأسماء ناشريها والتاريخ، وذلك تسهيلاً على المراجعة لمن طلبها من القراء.

إن وجود ذلك الفهرس إضافة إلى الهوامش هو دليل منهجية التأليف العلمي الجاد الذي يطمئن القارىء ويؤكد الثقة في المكتوب.

سابعاً: إنّ قارىء هذا الكتاب يلاحظ اضطراباً واضحاً في ترتيب الأفكار الجزئية ضمن موضوعات الكتاب، وذلك بسبب اقتطاع النصوص أو تلخيصها من هنا وهناك على غير منهجية واضحة محكمة. ولو قدر للكاتب أن يعيد كتابة تلك الموضوعات، إذن لجاء كتابه أشد تماسكاً وأكثر إفادة في سرد المعلومات وتثبيتها لدى القراء.

ثامناً: توسّع المؤلف شيئاً ما في نقاط على حساب نقاط أُخرى. فقد سلخ المؤلف ثلاث صفحات عن السهروردي من الموسوعة العربية الميسرة، وثلاث صفحات أُخرى عنها في موضوع الأشعري، كما أنفق صفحات كثيرة أُخرى عن موضوع المشكلة التي أثارها بعض الحنابلة وتآمروا بها على العز. والحق أن هذه الصفحات جميعاً كان أحرى بها التوسع في الموضوعات الأُخرى من حياة هذا المثال الخالد في حياة العظماء من خلال مواقفه في النهي عن المنكر ومصاولة الفساد وتربية التلاميذ وخدمة المجتمع.

كان في إمكان المؤلف التوسع في شخصية العز أباً ومعلماً وقاضياً وزاهداً

ومصلحاً ومجاهداً بالكلمة والمواقف التي كانت تهز العروش وتحرك الجماهير.

إن كتاباً مثل هذا الكتيب يخاطب قطاعات العامة ويوعّي الشباب والناشئين، حريٌّ به أن يتجنب الخوض في غمار المسائل الكلامية التي نشبت بين الفرق الإسلامية من معتزلة وأشعرية وسنة، فيحرك الوساوس في القلوب، ويشوّش عليها بأمور هي من هموم خواص الخاصة من الأساتذة والمثقفين. ولو التفت المؤلف مثلاً إلى كتاب العزّ (شجرة المعارف) الذي حققه الأستاذ إياد الطباع ونشر منذ سنوات في دمشق، واستخرج ما فيه من آراء تربوية وتحليلات نفسية في ظلال معارف القرآن وهدي النبوة، إذن لقدّم زاداً طيباً للقراء، ولأتحفهم بمادة رائعة تشرق لها القلوب وتنشرح الصدور.

وفي الختام، لا بد من الاعتراف بأن كثيراً من هذه المآخذ هي قاسم مشترك بين معظم من يكتبون عن أعلامنا الخالدين. لم نبرزها هنا إلا لكي يتجنبها أخونا الأستاذ عبد المنعم الهاشمي وسواه من الدارسين. شكر الله لهذا الأخ الكريم ما قدّمه واجتهد في عرضه، وغفر لنا جميعاً سهونا وأخطاءنا وجعل عملنا خالصاً لوجه الكريم.